

ومهما يكن فقد استوقفتنى جملة فى مقال الأخ المدنى، وهى ((أن الفقه المقارن هو الفقه على الحقيقة، وهو صناعة الفقيه على الحقيقة، أما الحافظ للفروع الذى لا يعرف إلا سرد الأحكام، فما ذاك بالفقيه)).

كلا، إنه ((شريط)) مسجل نطق بما سجل به من ألفاظ، فإذا سألته لماذا؟ أو ماذا تعنى؟ فكأنك تخاطب جماداً. أما الذى لا يكون لنفسه رأياً بمجرد السماع، بل يتتبع جميع الآراء والأقوال، وينظر إلى أدلتها من غير تحيز، ثم يؤمن بما تستدعيه المقاييس الصحيحة، فذاك هو الحاكم العادل، و الفقيه المجتهد الذى يؤجر إن أصاب، ويعذر إن أخطأ.

هذا إلى أن دراسة الفقه المقارن تخلق فى الطالب ملكة الاجتهاد والابداع، وتوسع من مداركه، و تعطيه قوة يدعم بها آراءه، و يدافع عنها بالحجة الدامغة والبرهان القاطع. أجل، إن الكسالى الذين يؤثرون النوم والقبل والقال على سهر الليالى والاشتغال يتذرعون بحجج أو هى من عقولهم، ويقولون: مالنا وللأقوال وأدلتها؟! إنها مضيعة للعمر... وينسون أو يتناسون أن ما من دليل، وإن ضعف إلا و يفتح لك باباً من أبواب المعرفة، أو يذكر بحقيقة حرّفك عنها مرور الزمن، أو يمرنك على التفكير، ويرشدك إلى منهج التدليل. واستمع معى الآن إلى الفقه المقارن وأقوال الفقهاء فى استخراج الأحكام من هذه الآية:

(وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم – ه المائدة).

ولست أعرف آية من آيات الأحكام كثرت فيها أقوال المذاهب، بل أقوال المذهب الواحد كهذه الآية الكريمة. فقد اختلفوا فىمن يجب عليه التيمم مع فقد الماء: هل هو المريض و المسافر فقط، أو كل من فقد الماء، حتى الحاضر الصحيح؟ وهل المراد بالملامسة الجماع أو ما يعم اللمس باليد؟ وهل المراد بالماء خصوص المطلق أو كل ماء حتى المضاف؟ وهل المراد بالصعيد التراب فقط أو وجه الأرض تراباً كان أو رملاً أو صخراً؟ وهل المراد بالوجه كله أو بعضه؟ وهل المراد باليد الكف فقط، أو هى مع الذراع؟.